**علم الكلام - المعتزلة**

**علم الكلام:**

في **العصر** **العباسي** الأول كثر البحث في العقائد وتشعب، وتكون من ذلك علم جديد هو **علم** **الكلام**، وقد تضافرت **عوامل** دينية وسياسية أدت إلى ظهور علم الكلام وتطوره، كما أن دخول **طوائف** من غير المسلمين في الإسلام وما جلبوه معهم من عقائد وأفكار وفلسفات كان له أثره في تأسيس علم الكلام وتضخمه بعد ذلك. فعلم الكلام علم **إسلامي،** ولكنه لم يخل من بعض التأثيرات الأجنبية.

وقد **عرّف** **علم** **الكلام** بأنه العلم الذي يُبحث فيه في ذات الله تعالى وصفاته، وأحوال الممكنات من المبدأ والمعاد، على قانون الإسلام، والقصد من العبارة الأخيرة إخراج البحث في الإلهيات بمنهج الفلاسفة.

وعرّفه **ابن** **خلدون** بأنه ((علم يتضمّن **الحجاج** **عن العقائد الإيمانية بالأدلة** **العقلية**، **والرد على المبتدعة المنحرفين)).**

فموضوع علم الكلام هو البحث في ذات الله تعالى وصفاته وما يتصل بذلك من العقائد الإيمانية كالوجود والمعاد، وكان يسمى في البدء **علم أصول الدين**.

**الفرق بين علم الكلام والفلسفة:**

ومن أهم **ما يميز علم الكلام عن المباحث الفلسفية** المتعلقة بالألوهية أن **علم الكلام يأخذ العقائد الدينية حقائق** **مسلّمة** **يستمدها من** **الوحي**، **ثم يسعى لإثباتها والاستدلال عليها بالأدلة العقلية**، قال ابن خلدون: " واعلم أن المتكلمين لما كانوا يستدلون في أكثر أحوالهم بالكائنات وأحوالها على وجود الباري وصفاته، وهو نوع استدلالهم غالباً. فالجسم الطبيعي الذي ينظر فيه الفيلسوف في الطبيعيات، هو بعض من هذه الكائنات. إلا أن نظره فيها مخالف لنظر المتكلم، وهو ينظر في الجسم من حيث يتحرك ويسكن، والمتكلم ينظر فيه من حيث يدل على الفاعل. وكذا نظر الفيلسوف في الإلهيات إنما هو نظر في الوجود المطلق وما يقتضيه لذاته، ونظر المتكلم في الوجود من حيث إنه يدل على الموجود. وبالجملة فموضوع علم الكلام عند أهله إنما هو العقائد الإيمانية بعد فروضها صحيحة من الشرع، من حيث يمكن أن يستدلّ عليها بالأدلة العقلية، فتُرفع البدع وتُزال الشكوك والشُّبه عن تلك العقائد..." (مقدمة ابن خلدون)

**فالمتكلم يستدل على ما يعتقد، أما الفيلسوف فإنه يستدلّ أولا ليعتقد.**

وقد ذكر في **أسباب** **تسمية** علم الكلام بهذا الاسم أقوال عديدة منها أنه سمي كلاما لأنه نظير **المنطق** عند الفلاسفة، ومنها أن مبناه على **المناظرة** **والجدل** وهما كلام صرف ليس بعمل، ومنها أن مسألة **كلام** **الله** أشهر مسائله وأقواها إثارة للجدل والخصومة...

ولما كان أوائل المتكلمين مضطرين إلى مجادلة خصومهم بمثل حججهم وأكثرهم من الملل الأخرى التي مزجت الدين بالفلسفة **اتجهوا إلى أن يقرؤوا الفلسفة اليونانية والمنطق**، ويستخدموا كثيرا من اصطلاحات الفلاسفة. ولكن الطابع الإسلامي بقي هو الأقوى لدى المتكلمين، بخلاف ما حدث مع الفلاسفة بعد ذلك.

وإذا كان منهج المتكلمين قد خرج عن منهج **القرآن الكريم والحديث النبوي** اللذين **كان** **خطابهما فطريا** ليس فيه توسع في إيراد الأدلة العقلية بل هو خطاب للقلب والوجدان أكثر مما هو خطاب للعقل بالدليل والبرهان، فإنه مخالف (أي منهج المتكلمين) أيضا لمنهج الفلاسفة في البحث والتقرير والتدليل.

وقد قام **منهج** **المتكلمين** على **أساسين** هما:

1/ البرهنة على مسائل العقيدة بالأدلة والبراهين **العقلية**.

2/ واللجوء إلى **تأويل** الآيات والأحاديث التي يخالف ظاهرُها مقاييسَهم العقلية.

وكان منهجهم هذا **غير** **مرتضى** عند طائفة غير يسيرة من المسلمين الذين آمنوا بالله وكتابه ورسوله وصدقوه من غير بحث كثير ولا جدال طويل، وفهموا الآيات فهما مجملا واكتفوا بهذا الفهم، وكان كثير من ذوي العقول الراجحة في العصر الأول يرى أن الدخول في تفصيل هذه المتشابهات والجدال فيها ليس من مصلحة المسلمين، وأن الأَوْلى هو **الاكتفاء بالمعنى الإجمالي** وإن غمض، وأنه لا ينبغي إشاعة هذه الطرائق الجدلية والتأويلات بين جمهور المسلمين لئلا يفتنهم ويفرق بينهم، لا سيما وأن ما يتعلق بالله وصفاته شيء وراء العقل لا يمكن أن يدرك أو يفهم وفق ما تدرك به الأشياء المحسوسة. ومن أشهر من ذهب هذا المذهب الإمام مالك وأحمد بن حنبل وابن تيمية...

ويفرق أحمد أمين بين علم الكلام والفلسفة الإسلامية من حيث أن علم الكلام نشأ **تدريجيا** وقام على مسائل **متفرقة،** تثير فرقة مسألة فيبدي فيها قوم رأيا آخر ويكوّنون فرقة وهكذا، كالذي حدث في مسألة مرتكب الكبيرة أكافر أم مؤمن؟ تقول **الخوارج** إنه كافر، فيأتي قوم ويقولون هو في **منزلة بين المنزلتين**، لا هو مؤمن ولا هو كافر، وتتكوّن حول هذا الرأي الأخير فرقة **الاعتزال**، وهكذا كانت المسائل المتفرّقة تثار، ويتكون المذهب تدريجيا، وكلما تقدّم العصر أثيرت مسائل جديدة، كما حدث مع العلوم الأخرى من نحو وبلاغة وفقه وغيرها.

أما **الفلسفة** في الإسلام **فلم** **تتدرج** هذا التدرج لأنها **نقلت** **كاملة** أو شبه كاملة عن اليونان، والجديد فيها إنما هو اشتغال المسلمين بها وتفهّمها وشرحها والتعليق عليها، ومحاولة التوفيق بين بعض قضاياها والقضايا الإسلامية، وبذلك عدّ علم الكلام علما إسلاميا، على حين لا تعد أعمال الفلاسفة المسلمين فلسفة إسلامية بأتم معنى الكلمة.

**الاعتزال والمعتزلة**

الاعتزال هو مذهب فرقة **من** **أكبر** **الفرق** الكلامية الإسلامية هم المعتزلة، وتكاد تجمع الروايات أن **واصل** **بن** **عطاء** هو أول من أظهر الاعتزال، وذلك في خضم الخلاف الذي ظهر بين المسلمين في منتصف القرن الأول الهجري، إذ ظهرت آراء **الخوارج والمرجئة والجبرية وأهل التشبيه والتجسيم**، فلما رأى واصل كثرة الاختلاف وتضارب الآراء شرع يرد على أصحابها ويجادلهم، فنسب إليه الاعتزال.لأنه اعتزل رأي **الخوارج** الذين كفّروا أهل الكبائر، ورأي **المرجِئة** الذين نسبوهم إلى الإيمان، **فقال واصل بالمنزلة بين المنزلتين**، أو لاعتزاله بذلك حلقة الحسن البصري.

ومن الدارسين من يرجع بالاعتزال إلى عام 40 للهجرة الذي عرف بعام الجماعة، لما حدث فيه من تنازل الحسن بن علي لمعاوية عن الحكم واجتماع كلمة المسلمين بذلك، فاعتزلت طائفة من المسلمين الحسن ومعاوية ولزموا منازلهم ومساجدهم فسمُّوا معتزلة.

وهذا التيار في الحقيقة يمتد إلى الخلاف الذي حدث بين علي ومعاوية حيث وقف عدد غير قليل من الصحابة موقفا محايدا **واعتزلوا الفتنة**، ويرجّح بعضهم أن يكون **المعتزلة المتكلّمون استمرارا للمعتزلة السياسيين**، فالمعتزلة الأولون وقفوا موقف **الحياد** في الحروب بين علي ومعاوية، والمعتزلة الآخرون وقفوا على **الحياد** والتوسط في الخلاف بين **الخوارج** **والمرجئة** في شأن مرتكب الكبيرة. وغيرها من المسائل.

ويمكن القول إن الفكر الاعتزالي كان في **بدايته** **إسلاميا** خالصا يستمد أصوله وحججه من المصادر الإسلامية، ولكنه **تطوّر** في مراحله اللاحقة حين أخذ أصحابه في العصر العباسي يتزوّدون من الثقافات الأجنبية، وبخاصة من الفلسفة اليونانية.

**الأسس الفكرية للاعتزال:**

**العقل: حكّم المعتزلة العقل في كل شيء**، واعتمدوا عليه في **تأويل** آيات القرآن والحديث الشريف، وفي الدفاع عن الإسلام ومناظرة الخصوم، **وجعلوا النظر العقلي أوّل واجب على المكلّف**، حتى إن خصومهم **اتهموهم بتقديم المعقول على المنقول**، وذلك أن بعض أعلامهم **كالقاضي عبد الجبار** أشار إلى أن **الاستدلال بالقرآن تابع لمعرفة الله، ومعرفة الله متوقفة على النظر العقلي**. كما أن **بعضهم** **رد الحديث** إذا عارض منهجهم العقلي.

وقد حمل المعتزلة على **أهل** **الحديث** ووسموهم بالتقليد والجمود والجهل، **وأبطلوا** **التقليد** من حيث أن المقلّد يمكن أن يقلّد من كان على باطل، كما يقلّد من كان على حق، ولهذا **أوجبوا على كل مكلّف أن يعرف الله بالدليل العقلي.**

**التأويل:**

**التأويل** **العقلي** **أساس مهم في المنهج الفكري الاعتزالي**، فبواسطته تمكن المعتزلة من **التوفيق** بين أصول مذهبهم وبين نصوص القرآن والحديث، فمتى وجدوا في هذين المصدرين نصا **يعارض** أصلا من أصول مذهبهم أعملوا فيه **التأويل**، وصرفوا ألفاظه إلى معان موافقة للعقل.

**والتأويل عند المعتزلة أمر اقتضته الحكمة الإلهية**، ليجتهد الناس في تفسير كلام الله، ويتنافسوا في تحصيل ما أودعه الله فيه من الحكمة، لا سيما وأن ألفاظ القرآن والحديث تعبر عن المعاني في كثير من الأحيان بأساليب الإشارة والمجاز، فهي تحتمل أوجها من المعاني.

ومن أهم النصوص التي أخضعها المعتزلة للتأويل العقلي تلك **الآيات والأحاديث النبوية المتعلقة بذات الله تعالى وصفاته**، فهم يجرّدونها من المعاني التي لا تليق -حسب تصوّرهم- بمقام الألوهية **كالتشبيه** **والتجسيم** وغير ذلك من الاعتقادات والتصورات الفاسدة، وقد وجد في عصرهم من كان يقول بالتجسيم، فكان لا بد من الرد عليه.

**الشك والتجربة:**

يعد **الشك** **والتجربة** ركنين هامّين ضمن المنهج الفكري للاعتزال، فهم أول من قرر **أن الشك طريق إلى اليقين**، يقول النظام: "**الشاكّ أقرب إليك من الجاحد، ولم يكن يقين قط حتى كان قبله شك**". ومن هنا كره المعتزلة **العوام** واحتقروهم لأنهم رأوهم سريعي التصديق لكل خبر ولو كان باطلا.

ويرى المعتزلة أن أصول علم الكلام هي التي تعصم الإنسان من الوقوع في الخطأ وتميّز الحق من الباطل، ولا يقوم لهذا إلا المتكلّمون والمعتزلة منهم خاصة، قال الجاحظ:"**لولا مكان المتكلّمين لهلكت العوام... ولولا المعتزلة لهلك المتكلمون."** (الحيوان، 4/ 289)

أما **التجربة** فهي الطريقة العلمية الصحيحة التي تمكن من تحقيق المعارف وتمحيصها، وقد أخذ بها المعتزلة واعتمدوا عليها.

وبهذا يتضح أن **العقل** **كان رائد المعتزلة** **في** **تفكيرهم**، حتى إنهم أخضعوا كل شيء إليه، ولم يثقوا إلا في أحكامه، قال الجاحظ:" ولعمري إن العيون لتخطئ، وإن الحواس لتكذب، وما الاستبانة الصحيحة إلا للعقل." (الحيوان، 6/291)

**التحسين والتقبيح العقليان:**

يعد هذا المبدأ من أهم مبادئ المعتزلة، وهم يرون أن **الحسن** **والقبح** صفتان ذاتيتان في الأفعال، **فالصدق يرجع حسنه إليه في ذاته**، **وكذلك الكذب**. ويحسن الفعل الحسن لانتفاء وجوه القبح عنه، ويقبح الفعل القبيح لكونه كذبا أو ظلما أو جهلا أو أمرا بقبيح أو إرادة له، ومن حيث هو ضرر لا نفع فيه .

**ومرجع الحكم بحسن الحَسَن وقبح القبيح هو العقل**، لذلك **اتخذه المعتزلة حَكَما على الأفعال**، وحُكم العقل على الأفعال يكون بطريق الاستدلال، فمتى كشف العقل عن وجوه الحسن أو القبح في فعل من الأفعال علم الحكم المتعلق بذلك الفعل، ولو كان الحسن والقبح لا يدركان بالعقل بداهة لما اتفق عليه العقلاء.

وأوامر الله تعالى التي أمر بها لا تخرج عن هذا المبدأ، **فما أمرنا الله تعالى بما أوجب علينا إلا لأنه حسن، وما نهانا عما حرّم علينا إلا لأنه قبيح**، **فالأمر والنهي (الشرعيان) تابعان لحسن الأفعال وقبحها لا العكس**. وقد خالف أهل السنة والأشاعرة هذا المبدأ، فذهبوا إلى أن الحسَن ما حسّنه الشرع والقبيح ما قبّحه الشرع، ورد عليهم المعتزلة بأن تعليل الأحكام وقياس بعضها على بعض واستنباطها من أصولها وفق هذا القياس دليل على مبدأ الحسن والقبح العقليين.

ويلاحظ أن **الأسس** **الفكرية للاعتزال ترجع كلها إلى** **العقل** والإعلاء من شأنه وتحكيمه في ما عداه.واعتماده في تمحيص الأخبار والتأويل والتحسين والتقبيح وغير ذلك.

**الأصول الخمسة عند المعتزلة:**

بنى المعتزلة عقيدتهم على أصول خمسة جعلوها محاور لهذه العقيدة وفيصلا بين الحق الذي اعتقدوه وانحراف الفرق الذي انتقدوه، وهذه الأصول هي: **التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.**

**التوحيد:**

وذهب فيه المعتزلة إلى **التنزيه** **المطلق**، وإبعاد كل ما يوهم التجسيم ومشابهة المخلوقين للذات الإلهية، مع ما يترتب على ذلك من نفي جميع خواص الأجسام كالتركيب والانحياز والحدوث والتغير والانتهاء والزمان والمكان، حتى إنهم **نفوا** **قدم** **الصفات** لأن ذلك يوجب برأيهم تعدّد القدماء.

**العدل:**

وذلك أنه **لا يجوز في حق الله تعالى أن يكلّف الإنسان ما ليس في قدرته**، ولا يأمره بشيء ثم يحول بينه وبينه، وقادهم ذلك إلى القول بأن **العبد يخلق أفعاله**، إذ لو كانت المعصية من خلق الله لبطل التكليف. **وأنه سبحانه لو شاء لأجبر الخلق كلهم على طاعته،** ولكنه لا يجبرهم بل يخلق فيهم القدرة على الطاعات والقدرة على المعاصي وإن كان لا يرضاها ولا يحبها، وأن ذلك **امتحان** منه سبحانه لعباده لا عجز، بل هو القادر القاهر، لا يفعل بالعباد إلا ما هو صلاح لهم، وهو تعالى أحسن تدبيرا بعباده منهم لأنفسهم.

**الوعد والوعيد:**

وهذا الأصل وإن كان متفرعا عن أصل العدل الذي قبله فإنهم أفردوه للرد على **المرجئة** الذين قالوا إن أمر العاصي مرجأ إلى الله تعالى إن شاء عذّبه وإن شاء غفر له، فقال المعتزلة ردا عليهم: من أطاع الله تعالى في ما أمر به ونهى عنه استحق وعد الله (الجنة ونعيمها)، ومن عصى الله في ذلك استحق وعيده (النار وعذابها)، **والله** **صادق في وعده ووعيده، وأنه سبحانه عادل لا يجوز في حقّه أن يعذّب المطيع ويُنعم على العاصي.**

**المنزلة بين المنزلتين:**

اختلفت الفرق في حكم **مرتكب** **الكبيرة** فقال **الخوارج** هو كافر مخلد في النار، وقالت المرجئة هو **مؤمن**، ويرجأ حكمه إلى الله، أما **المعتزلة** فقد أجمعوا على أن مرتكب الكبائر ليس بمؤمن وليس بكافر، بل هو **فاسق** في منزلة بين المنزلتين.

**الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:**

وضع المعتزلة هذا الأصل للرد على **الشيعة** **الإمامية** في قولهم **بعصمة** **الإمام**، وأن له وحدَه الحقَّ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فجعل **المعتزلة** العمل بهذا الأصل واجبا على كل مسلم بشروط، فلا يكفي المسلم برأي المعتزلة أن يكون مؤمنا بالأصول السابقة، وإنما عليه أن يعمل على الدعوة إليها ونشرها.

ومن أشهر أعلام المعتزلة: **واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، وبشر بن المعتمر، وإبراهيم النظّام، والجاحظ، وأبو الحسن الرمّاني، والقاضي عبد الجبار**، **والزمخشري.**